مصر
في الحقيقة والخيال
EGYPT : in fact and fiction.

وجه أحد أصدقائي الادباء نظري إلى مقال ضاف نشرته جريدة الاجبشيان غازيت الانجليزية في عددها الصادر في ٢٨ ديسمبر الماضي ، رداً على مقال ذكر الكاتب أنه نشره في عدد ماض من أعداد هذه الجريدة ، تناول فيه كاتبه الحركة الادبية والعلمية في مصر .

ولقد ظهر لي أول وهلة أن المقال من قلم رئيس تحرير هذه الجريدة او من قلم أحد محرريها ، فقد اعتدنا أن لا تفسح الاجبشيان غازيت صدرها لمقالات من غير قلم تحريرها مصبوبة في قالب معين ومطبوعة بطابع خاص بها .

ولست أدري كيف سكتت جرائدنا السيارة عن دفع المفتريات التي تضمنها ذلك المقال ، وكيف صمت كتاب هذا البلد وأدباؤه ازاء تلك القذائف النارية التي صبها عليهم الكاتب في ثلاثة أنهر من جريدته ملأها بالدعاوى الفارغة والخطابيات الغربية التي ذكرتنا بما كان ينشر في جرائدنا في أول عهدها بالوجود ، أي في عهد باد في صحافتنا المصرية ، أحياه ذلك الكاتب بمقاله المشحون بكل ما يمكن أن يوجه لشعب من مناقص ومفتريات .

اني ولا شك من أول المعجبين بالادب الانجليزي ، بل و بالثقافة الانجلوسكسونية على وجه الاجمال . واني لأعترف بأن مستقبل العالم ملك للغة الانجليزية . وانه خير لأمم الشرق أن تنتحل العقلية والخلق الانجلوسكسونيين ، من أن ينتحلن شيئا عن الحضارة اللاتينية . ولكني مع كل هذا أستطيع أن أنتقد هذه الثقافة وأن أفتش فيها عن مناقص سد ثغراتها رجال من غير الانجليز . أستطيع أن أقول لولا « ماكس مولار » الالماني المتجلنز لاصبحت الآداب الانجليزية خلوا من كثير مما هي متحلية به من فلسفة اللغة والابحاث اللغوية العميقة ، بل و من ترجمة « الرغفيدا » ومن الوقوف على شيء من أصول فلسفة الهند ومذاهبها . ثم أستطيع أن أقول أنه لو لا باقون ولامارك

وجفردى سانيلير فى فرنسا وكاسبار فردريك وولف وفون بوخ وفون باير فى المانيا ، لم يكن داروين وهكسلى وولاس فى انجلترا . فى استطاعتى أن أقول ذلك وأكثر منه لو أننى أردت أن أفتش عن مناقص الادب الانجليزى وعن الدين الذى يحمله علماء انجلترا وادباؤها لغيرهم من علماء الامم الاخرى وأدبائها . ذلك لأن الكاتب قد نبا به السبيل عن تقييم الحالة الراهنة فى الشرق عامة ومصر خاصة تقييما جدياً بعقل غير مدخول بشىء من التحامل الذى نعتقد ان للسياسة اثرا فيه كبيرا ، أو بنظر غير مفسد بترهات فئة من الذين نعرف كيف يكيدون لهذا البلد ويلقنون الكاتب أمثال تلك الاقوال التى أثبتها فى صحيفته من غير ان يعرف حتى كيف يكيدها لمصر ، فاظهر بما لا يترك مجالا لريب انه غافل عن أن مصر ان تأخرت عن اللحاق بأرقى الامم الأوروبية من حيث التعليم فذلك راجع الى سياسة دنلوب وكرومر فى المدارس المصرية ، تلك السياسة التى أخرجت لنا بيروقراطية منحطة ، وسدت السبيل فى وجه الفهم أن ينمو وان يتسع مجاله

على أننا نرى أن من الواجب أن نلخص مقال ذلك الكاتب قبل أن نمضى فى مناقشته تحديدا لموضوع البحث :

اختار الكاتب فقرة واحدة من المقال الذى نشره وبنى عليها رده الطويل . جاء فى هذه الفقرة ما يلى :

« والنتيجة أن لمصر أن تفخر بان فيها محامين ومفكرين من الطراز الاول ، وثقاة من الاطباء ورجال العلم والمهندسين وغيرهم من المثقفين الذين يمكن محاذاتهم لغيرهم من رصفائهم الاوروبيين . وفضلا عن هذا فان هنالك تعطشا للاساليب الاوروبية ، حتى أن المؤلفات الاوروبية العظمى أو تراجمها العربية يدرسها ويستوعبها حتى أولئك الذين لم تسنح لهم الفرصة لدرس لغة من اللغات الاجنبية » — ولقد أستطرد الكاتب بعد ذلك الى الصحافة فقال إن قوة النقد فى الجمهور المصرى قد اضطرت أصحاب الجرائد الى انتحال أرقى الاساليب الصحفية الخ الخ .

هذه هى الفقرة التى نقلها الكاتب من المقال الذى نشره وعليها بنى رده كما يظهر. لهذا نمضى فى تلخيص أقواله باطناب لنستطيع بذلك أن نحصر ذهن القارىء فى لب الموضوع . قال :

« بدأ الكاتب بقوله إن البراهين التي تضمنها المقال الذى نشره لا تثبت أمام المناقشة والبحث . وحتى على فرض أنها كلها صحيحة فان ماطمع فى اثباته من طريقها شيء غير جدير بان يطمع فيه . فان أمة — « رفعت فى زمان لواء المدنية والنور للعالم كله » — قد انحطت اليوم الى أمة لاصناعة لها إلا النقل عن غيرها من الامم . »

« واذا فرض وسلمنا بان فى مصر محامين من الطراز الاول ، ولو أنه من المستحيل أن تطبق أية وسيلة يمكن بها معرفة اذا كان « تقسيم الطراز الاول » يمكن أن يكون معادلا لما فى الامم الاخرى . فاين أولئك المفكرون الذين تفخر بهم مصر؟ لم يظهر فى مصر خلال العقد الماضى من الزمان الا فيلسوفان دينيان هما طه حسين وعلى عبد الرازق ومع كل هذا فقد أظهرت مصر تقديرها لهما بان اضطهدتهما وطاردتهما . وبعد هذين والمؤلفين الذين يظهرون الآن كتاب فجر السلام ، لم يظهر أى أثر للرغبة فى تطبيق قواعد النقد الحديث أو استخدام نتائج البحث المدرسى . بل إن الامر قد اقتصر على العودة شيئا بعد شيء الى المادة القديمة ليلبسها الكاتبون ثوبا جديدا . وعندما نذكر رجالا من أمثال طاغور الذين ظهروا فى غير مصر من بلدان الشرق وقد حازوا صيتا عالميا ، فكيف نذكر بجانبهم مصر التي لم يظهر فيها رجل واحد عرف خارج بلاده ، فضلا عن الاضطهاد الذى ينزل برجالها . ولاشك فى أن مصر أنجبت جراحين ومهندسين لم يعملوا من شيء الا أن طبقوا العلوم التي درسوها فى أوروبا . ولكن أين فى مصر الاعمال الابتكارية التى زادت الى مجموع المعرفة الانسانية ؟ »

« ومما نغتبط به أن فى مصر ابحاثا مبتكرة يقوم بها أطباء مصريون ولكن هذا لم يكن له أثر إلا منذ زمان قصير . إن السبب فى هذا هو أن المصريين يعتقدون أن نيل الدرجات العلمية غاية فى ذاته . على الضد مما فى أوروبا التى بدأ رجالها يدركون أن حمل الشهادات العلمية ليس باكثر من دليل على أن حاملها قد تدرب عقله على أن يستوعب شيئا خاصا فى الحياة . وسواء استطاع أن يستوعبه

أم لم يستطع فذلك شيء راجع الى نظرته فى الحياة والعمل الذى يعمله فيها بعد الفراغ من طور التعليم »

« والحقيقة أن المصريين فى مجموعهم يكرهون كل من يبرز من بينهم . فان المصرى الثالث (بعد طه حسين وعلى عبدالرازق) الذى يصح أن يقال أنه نال صيتا عالميا هو احمد حسنين بك . ولا مبالغة مطلقا ان قلنا أنه لم يتجرد عن التشريف والاحترام الا فى بلاده . ومما يروى أن أحد ضباط الحدود أراد أن يقلل من أهمية استكشافه لواحة « اركنو » فقال بان رجال الحدود يزورون هذه الواحة كل شهر ! ولقد طبع « حسنين بك كتابه - The Lost Oasis - فى اللغة الانجليزية فى انجلترا وأمريكا على السواء ولقى رواجاً . ثم طبع نسخة باللغة العربية فلم يبع منها شيء ، فاضطر إلى توزيعها مجاناً ، وحتى الآن لم أقابل مصرياً قرأ هذا الكتاب . »

« لا يباع فى مصر كتاب مهما كانت قيمته بأكثر من عشرة قروش مصرية . وهذا أغلى ثمن يدفع فى كتاب ، ومع هذا السعر الزهيد لا يباع منه الا القليل . »

« أما الذين يستوعبون الكتب الأوروبية وترجماتها فلا وجود لهم إلا فى مخيلة كاتب المقال . لأن كل القراء فى مصر انما يعكفون على الجرائد والمجلات الشعبية المهضومة المادة ، والتى يغلب فيها أن تكون مترجمة عن المادة الأوروبية . »

« لا يوجد فى مصر أدب مصرى ولا كتاب . ولا يوجد مؤلف واحد من المؤلفين يستطيع أن يعيش من قلمه كما لا يوجد صحفى يستطيع ذلك . أما المثل الأكبر على ذلك فانه حتى الآن لم تظهر ترجمة جدية لحياة سعد زغلول باشا ؟ ولا أستطيع أن أعتقد أن شيئاً كهذا ممكن حدوثه فى أية أمة من الأمم المتمدينة الأخرى . »

« أما الجرائد المجلوة فى آخر طراز أوروبى فهذه ملك للسوريين . وإنه حتى الآن لم يتسن لجريدة أدارها مصريون أن تنجح كعمل مستقل ثابت

الدعائم لمدة طويلة من الزمان . أما تاريخ الجريدة والمؤيد والكشاف فأكبر دليل على صحة ما أقول . »

ثم عطف الكاتب على ناحية السياسة فقال : « إن غاندى فى الهند مثال الابتكار ، أما زغلول باشا فى مصر فمثال التطرف » . وختم مقاله بأنه يرجو أن لا تحمل أقواله على محمل العداء للمصريين . وأنه يريد فى النهاية أن يقول بأن مصر لا يجب أن تنتظر أن تفلح فى شىء إذا هى عكفت على النقل عن ثمار العقل الأوروبى ولم تنزع فى الوقت ذاته إلى تكوين ثقافة خاصة بها »

***

والحقيقة أن الكاتب قد أصاب فى كلمته الأخيرة . فان مصر يجب أن تكون لها ثقافة خاصة بها . ولكنه فى الوقت ذاته قد أخطأ كل الخطأ بأن تعجل فى الحكم على حركة تجديدية لم تقم إلا بالأمس ، ولم تولد إلا بعد الحرب العظمى . فان الذين أدركوا العهدين ، عهد مصر الأدبى قبل الحرب وعهدها بعد الحرب ، ليدركون من غير كد أن الفارق عظيم وأن الثقافة المصرية قد أخذت تتكون بالفعل ، حتى اصبحت مصر اليوم ، ولها الفخر الأعظم ، منارة الشرق ومركز التوزيع الفكرى فيه ، من أقصى الغرب إلى أقصى حدود فارس . لا ينازعها فى ذلك شعب من شعوب الشرق العربى بأجمعه .

أما اعتمادنا على الكتب والمنتجات الأوروبية فى طورنا الحاضر فمسألة طبيعية لا مطعن فيها . فان الرومان لم يكونوا آدابهم وثقافتهم إلا على الثقافة اليونانية ، وكذلك متقدمو آباء الكنيسة النصرانية ومتأخروهم من أصحاب المدارس وكذلك النساطرة واليعاقبة والسريان والعرب . وكذلك أهل أوروبا فى القرون الوسطى فانهم أقاموا ثقافتهم على ترجمة ما نقل العرب عن اليونان ، وبذلك وضعوا الأساس وأقاموا عليه بناء ثقافتهم .

هذه هى الخطوات الطبيعية التى يخطوها كل شعب اذا نزع إلى تكوين ثقافة خاصة به . أما كلام الكاتب فيشعر بأنه قد تخطى هذه الحقيقة ، وهو يريد اليوم أن يقيم المصريون ثقافة مصر على غير أساس . وهذا ولا شك مستحيل .

إن من الضرورى لكى تقوم ثقافة مصرية أن يكون لها أساس من الحضارة الحديثة . وكل محاولة لتكوين ثقافة على غير هذا الأساس مقضى عليها بالفشل المحقق. فان انتحال أسلوب الفكر الأوروبى هو محور الدائرة فى الصراع القائم اليوم بين المدرسة الحديثة والمدرسة القديمة فى مصر . ولا جرم أن هذا الصراع يستغرق جهد الذين يخوضون هذه المعركة اليوم . ولا شك عندى فى أنه متى فاز المجددون بتثبيت دعائم هذا الاسلوب . فان الثقافة المصرية تتكون من طبيعتها ويلبس الأدب الطابع المصرى الصحيح من غير أن يحتاج الى الاستمداد من النواتج الاوروبية . ذلك لان ثقافة مصرية لن تقوم على غير اسلوب تتخذه ركيزة لمنتجاتها . وهذا ما غفل عنه الكاتب ومضى فى مقاله من غير أن يقدره ، أو يجعل له أقل وزن فى سلسلة براهينه التى أتى عليها .

وهنا يجب أن نعلن فى صراحة أن مدرسة الصحافة المصرية قد خرجت صحفيين من الطراز الأول . وأن من الصحافة ومن كد الصحفيين تكونت الحركة الوطنية الكبرى من غير أن يكون للعنصر السورى أقل يد فى ذلك . بل يجب علينا أن لا نغفل عن التنبيه على أن فى صحفي هذا العصر من هم أنعم عيشاً من أدباء انجلترا فى القرن الثامن عشر . فعندنا من الصحفيين من هم أرغد عيشاً من صموئيل جونسون دكتاتور الأدب الانجليزى فى عصره ، وفيلدنج الكاتب القصصى المعروف ، واوليفرجولد سميث ، الذى باع روايته الخالدة قس واكفيلد بدراهم معدودة ، فى حين أنى شخصياً بعت كتابى ملقى للسبيل فى موضوع علمى بحت باضعاف ما باع به جولد سميث روايته . ومما أذكر من الاشياء التى علقت بذهنى عندما كنت أقرأ ترجمة صموئيل جونسون التى وضعها بوزويل أن أحد مشهورى الأدباء الانجليز التقى به آخر من رصفائه ولعله جولد سميث نفسه ، بعد منتصف الليل وفى الشتاء وكان أحدهما منزويا فى عتبة منزل والآخر يتجول لعله يعثر على مأوى يأوى اليه ، فقال الواقف على العتبة لزميله لا تتعب نفسك تعال وتم فى حجرتى — أى عتبة المنزل ؟ ولقد ساقها بوزويل ليظهر مقدار ما تعرضله رجال الأدب فى عصر جونسون من المشاق فى سبيل الادب . فهل كان فى انجلترا فى ذلك الوقت أديب يستطيع أن يعيش من قلمه ؟

ليس فى مصر أديب واحد بلغت به الفاقة ما بلغت بادباء الانجليز فى القرن الثامن عشر . وإنى اقرر هذه الحقيقة رافع الرأس . مهيباً بالكاتب أن يسألنى البرهان وأنا الزعيم بأن ازوده بألف برهان بدل برهان واحد .

ولقد نسى الكاتب ولا شك أن الادب الانجليزى لم يثمر للادباء الا فى القرن التاسع عشر . ولقد نسى مع هذا أن جامعتى أكسفورد وكمبردج قد ظلتا تزودان العالم الانجليزى بالمتعلمين وبالادباء أكثر من ستة قرون من قبل ذلك . فأين كان الادب الانجليزى وأين كان قراء الانجليزية الذين حموا أدباءهم من التسكع فى شوارع مدينة لندن ، نواة العالم الانجليزى، عراة حفاة جائعين ؟

ولا بد لى من كلمة أسوقها فيما يدعى الكاتب من أن مصر مدينة بصحافتها لاخواننا السوريين . فى حين أن الحقيقة ان إخواننا السوريين مدينون بصحافتهم لمصر والمصريين . والا فليظهر لنا الكاتب السر فى أنه لم تؤسس فى سوريا كلها صحيفة واحدة تضارع أحط الصحف المصرية على اطلاق القول ، وسوريا بلها سوريون ؟

وإنك لو قلبت الصحافة السورية فى مصر لوجدت ان طابعها مصرى قبل كل شىء . فكأن المصرية هى التى صبغت الصحافة السورية بطابعها الثابت . وأن عكس ذلك غير صحيح على الجملة

ان الاقلام المصرية هى التى تزود الصحافة السورية بأروع مافيها من الادب وأعمق مافيها من صور الفكر . وهى التى تزود كثيراً من صحافة سوريا الراقية بمثل ذلك . انه المنطق المصرى والاساليب المصرية هي الطابع الثابت فى الادب العربى فى هذا العصر ، وهذه حقيقة يعترف بها كل أهل الاقطار العربية من الناطقين بالضاد . ولو أنى أعلم أن هنالك أى وجه لان ينازعنى شرقى من أهل العربية فى هذا ، لما أقدمت على تقريره فى صراحة وجلاء هما حقي فى مثل هذا الموقف .

أما الصحف التى استشهد بها الكاتب ومنها الجريدة والمؤيد والكشاف وسقوطها فى عالم العمل الصحفى، فراجع الى حقيقة أولية بسيطة هى انها صحف سياسية تعمل فى سبيل قضية وطنية ، وحياتها وموتها مرهونان على تطور التيارات الفكرية فى السياسة ، ولن تقوم صحافة مصرية ثابتة الدعائم بحق إلا بعد ان تقتحم المعركة

السياسية بوجه من الوجوه . وهذا شيء لم تتعرض له الصحافة السورية السياسية فى مصر لا جملة ولا تفصيلا .

فاذا رجعنا بعد ذلك الى اكباب الناس على الصحف السورية ، فاننا اذا استثنينا « المقتطف » وهى بحق المدرسة التى لاينسى المصريون فضلها ولا فضل مؤسسها المغفور له الدكتور صروف ، وجدنا انها كلها صحف صفراء . صحافة من الطراز الامريكى المنحط الذى يستغل أحط مافى الجماعات من نزعات . وعندى أن هذا النوع من الصحافة يجب أن يصادر كما تصادر المهربات والمواد المخدرة والعقاقير البيضاء .

ولا يسبقن الى أذهان اخواننا السوريين اننا بذلك نغمطهم حقهم ، بل أننا نريد أن نعطيهم حقهم غير زائد ولا منقوص ، شأننا فى كل ماتتناول بالنقد فى مختلف الموضوعات .

واظن أن فى هذا القدر كفاية لذلك الناقد الذى ان كان قد تطرف فى القول ، فقد استفدنا منه نصحه بان نعمل على تكوين ثقافة مصرية ، اعتقد أن المصريين يتكاتفون على تدعيم أسسها فى الوقت الحاضر .

المحرر

أوبرات أبى شادى
ثروة أدبية فنية
من الشعر والغناء والتمثيل
تطلب من المكاتب الشهيرة